تمهيد

الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية - قديمًا وحديثًا - مصطلح فني يطلق ويراد منه معنى معين شاع بين طائفة من الباحثين ، بيد أن هذه العبارة - أعني الأسلوب - لها مدلولات واسعة لا تكاد تحصر ، ومعلوم أن جميع المصطلحات الفنية الخاصة لها نظائر في أصول الوضع اللغوي .

وكثيرًا ما يكون بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي علامات تجمع بينهما من جهة، هي التي سوغت لأهل الفنون أن يضعوا المصطلحات على هدى منها.

وفي اللغة العربية إذا وقفنا على معنى الأسلوب فيها ، ثم قارنا بينه وبين المعنى الفني الاصطلاحي ظهرت لنا أواصر القربى بين المعنيين . وقد جاء في لسان العرب لابن منظور شرحًا لمعنى الأسلوب في اللغة قوله :

« ... ويقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول : أي أفانين منه » .

فهذا الشرح يضع أمامنا حقيقتين بارزتين ، وهما :

* أن الأسلوب في كلام العرب الخُلَّص كان يطلق على الاتجاهات الحسية والمعنوية ، فسطر النخيل شيء حسيّ مدرك بحاسة البصر وحاسة اللمس . وكذلك الطريق الممتد ، أما المذهب والفن القولي أو الفكري فهذه أمور عقلية ذهنية ، والثابت في الدراسات اللغوية (علم اللغة وفقه اللغة) أن المعاني الحسية سابقة في الوضع اللغوي على المعاني المعنوية (المجازية وما في حكمها كالكناية والتعريض)، فالمعنى الحقيقي وضع أولاً ، ثم حدث له شيء من التطور الدلاليّ فكانت المعاني الثانية كالمجاز والكناية، وهذه حقيقة لا يُمارى فيها وما تزال شواهدها تقع في واقعنا

المعاصر . فالقنبلة - مثلاً - أطلقت أول ما أطلقت على نوع من السلاح المدمر ، ثم طرأ عليها تطور دلالي فأصبحت تطلق - مجازاً - على الكلمة ، أو الخبر المذهل الذي يكون له دويّ في الأذهان والمشاعر ، فيقال: فلان أطلق قنبلة مدوية إذا قال كلمة كان لها صدى كبير، أو أذاع صحفيّ خبراً غير عاديّ فحرك به المشاعر وشغل الأذهان .

* أما الحقيقة الثانية فهي : الصلة الوثيقة بين المعنى الوصفي الحقيقي لكلمة الأسلوب ، وهو السطر من النخيل والطريق الممتد ، وبين المعنى أو المعاني الاصطلاحية لنفس الكلمة « الأسلوب » ، فكما أن السطر من النخيل يأخذ شكلاً معينًا : مستطيلاً أو دائرياً ، وكذلك الطريق الممتد على الأرض كالطرق الصحراوية ، والشوارع ، فإن الأسلوب الفني شبيه بهما، فإذا قلنا - مثلاً - : أسلوب الشعر، لحظنا معنى الالتزام به لمن يريد أن يقول شعراً ، فهو محكوم بالأوزان والقوافي كما أن الذي يسير في طريق حسي محكوم باتجاه الطريق الذي يسير فيه ، ولهذا يقال في النصح العام : سِرْ أو دُرْ مع الطريق كيفما دار .

وهكذا تجد علاقات واضحة بين المعاني الموضوعة في أصل اللغة ، وبين المصطلحات الفنية المشتقة منها .

الفرق بينهما :

وتجدر الإشارة إلى الفرق بين المعاني الوضعية ، والمعاني الاصطلاحية المشتقة منها ، وأبرز الفروق بينهما اثنان :

الأول : أن المعاني الوضعية ثابتة ، أما المعاني الاصطلاحية فتختلف تبعًا لاختلاف الاصطلاح، وإن بقيت كلها موصولة العرى، فأسلوب الشعر غير أسلوب القصة، والأسلوب الأدبي غير الأسلوب العلمي كما سيأتي .

أما الفرق الثاني : فإن المعنى الوضعي عام يشترك في الوقوف على المراد منه بين جميع المتكلمين باللغة ممن لهم دراية بأصول الوضع ، أما

المعاني الاصطلاحية فيطرأ عليها تغييرات متعددة ، فالصرف مثلاً له معنى لغوي وضعي هو : الدفع والطرد ، يقال: صرفت فلانًا عن كذا ، أي حلت بينه وبينه . ويجمع هذا كله أن تقول: إن الصرف في اللغة تدور معانيه حول : المنع : تقول : صرفني كذا ، أي منعني عن المضيّ .

أما في الاصطلاح : فالصرف في عرف أهل الفقه هو فك العملة ذات القيمة الكبيرة إلى وحدات صغيرة .

والصرف في عرف أهل اللغة هو البحث عن بنية الكلمة ، ومعرفة أصولها ، وما فيها من زوائد وكيفية صياغاتها . . الخ .

والصرف في عرف المهندسين الزراعيين هو تصريف المياه الزائدة عن حاجة الزرع، ويقرب منه الصرف الصحي وهو التخلص من المياه المستعملة.

والصرف في عرف رجال المال والاقتصاد هو : القبض ، يقال : صُرفت الرواتب ، بمعنى قبض مستحقوها.

وعند المفسرين الصرف : التكاليف الواجبة .

هذه أهم الفروق بين المعاني الوضعية والمعاني الاصطلاحية ، ولنعد بعد ذلك إلى الأسلوب وما يتعلق به من مباحث .

* * *

ما المراد من الأسلوب ؟

الأسلوب جنس عام تندرج تحته أنواع كثيرة ، لذلك ينبغي أن يحدد المراد من الأسلوب الذي عناه المنهج الدراسيّ قبل أن نمضي مع المنهج في خطته الموضوعة .

● **الأسلوب نوعان:**

حريّ بنا أن نعرف أن الأسلوب يطلق ويراد منه نوعان كبيران تحت كل

منهما أضرب متعددة . وأضرب كل نوع منهما تحقق فيها خصائص النوع ثم تتفاوت فيما بينها تفاوتًا يحقق لها ذلك التعدد . ونوعا الأسلوب الكبيران هما : «**الأسلوب العلمي**» ، ثم «**الأسلوب الأدبي**» ، ونقدم أولاً خصائص الأسلوب العلمي العامة في إيجاز لنكون على بينة من حقيقة المادة التي ندرسها .

* * *

خصائص الأسلوب العلمي

موضوع الأسلوب العلمي هو حقائق العلوم والفنون أيًا كانت طبائع تلك العلوم : تاريخًا أو فلسفة أو طبًا أو رياضة أو هندسة ، أو كيمياء ،أو طبيعة ، أو فقهًا ، أو تفسيرًا ، أو حديثًا ، أو نحوًا ، أو صرفًا ، أو معاجم ، أو علم لغة ، أو فقه لغة ، أو بلاغة وبيانًا ، أو علم نفس ، أو سيرة ، أو فلك ، أو جغرافيا . . الخ . . الخ .

والكاتب في علم من هذه العلوم منهجه خبريّ ، أي مخبر عن واقع يقيني أو محتمل. والخبر قيمته في صدقه، وجماله في صحة العبارة عنه .

لذلك فإن من يكتب في مجال العلوم مطالب بأن يلتزم بنقل حقائقها في أمانة ووضوح وجلاء، وعليه - وفاءً بحق هذا المنهج - أن يزيح عن أسلوبه الغموض والاحتمال في ألفاظه المفردة ، وفي تراكيبه وجمله وفقراته. هذه واحدة .

والثانية : عليه أن يخاطب العقل والفكر .

أما الثالثة : فإن وسيلته لها غاية واحدة لا تتعداها ، وهي : الإقناع . وله أن يستثمر في تحقيق هذه الغاية كل الدلائل والبراهين التي تضع أمام العقل الحقيقة العلمية سالمة من الشك ، بريئة من الطعن .

والرابعة: أن تكون لغته بعيدة عن المجازات؛ لأن معاني المجاز خاصة، أما حقائق اللغة فعامة مثل: العملة الصعبة، رائجة في كل الأسواق.

ويتسم الأسلوب العلمي بالهدوء بعيداً عن الإثارة والانفعال ، كما يكثر في الأسلوب العلمي التقسيم والتبويب والتنظيم ، وسوق الحجج العقلية والمنطقية والقياس والتمثيل العلمي والاستقراء .. الخ .. الخ ، وإليكم مثلاً يجلي هذه الخصائص التي أشرنا إليها .

حديث عن الأهرام

بنى الفراعنة في مصر منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة الأهرامات الثلاثة، وهي آية من آيات الحضارة الهندسية باعتراف الجميع ، ومعروف أنهم لم يسبقهم أحد في إشادة مثل هذا البناء ، لذلك كان موضع اهتمام المفكرين والأدباء والأثريين ، ومما قيل فيه النص الآتي :

«كان القصد من بناء الأهرام إيجاد مكان حصين خفيّ يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته ؛ ولذلك شيدوا الهرم الأكبر وجعلوا فيه أسرابًا خفية زلقة صعبة الولوج لضيقها ، وانخفاض سقفها حتى لا يتسنى لأحد الوصول إلى المخدع الذي فيه تابوت الملك ، ومن أجل ذلك أيضًا سُدّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك ، ولا يعرف سر تحريكه إلا الكهنة والحراس ، ووضعت أمثال هذا الحجر على مسافات متتابعة في الأسراب المذكورة ... ويعد الهرم الأكبر من عجائب الدنيا . قرر المهندسون والمؤرخون أن بناءه يشمل ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر ، متوسط وزن الحجر طنان ونصف طن ، وكان يشتغل في بناء الهرم مائة ألف رجل يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر . وقد استغرق بناؤه عشرين عامًا...» .

تأمل هذه القطعة تَرَى أنها اشتملت على خصائص الأسلوب العلمي (التاريخي) لأنها مجموعة أخبار يُفترض أن الكاتب حكاها حكاية صادقة ، مطابقة للواقع ، ولا أثر لشخصية الكاتب فيها إلا السرد المتتابع ، ولغة القطعة بعيدة عن الإثارة التزم فيها الكاتب استعمال الألفاظ والتراكيب الوضعية ، أي أن هذه اللغة تخلو من المجازات واستعمال اللفظ والتركيب في حقائقها اللغوية ولو أن كاتبًا آخر تناول نفس الموضوع لسار هذه

السيرة؛ لأن مادة الأسلوب العلمي (أياً كان نوعه) حقائق خبرية يلتزم فيه الكاتب أمانة النقل وصدق الخبر ، والوضوح والهدوء ومخاطبة العقل لإمداده بمعارف جديدة ، وهذا هو شأن الأسلوب العلمي دائمًا .

فطريقة إيجاد مساحة المثلث -مثلاً- تصاغ في قانونين لا ثالث لهما. فإما أن يقال : نصف القاعدة في الارتفاع ، أو القاعدة في الارتفاع مقسومًا على اثنين .

وفي التغييرات التي تطرأ على الحديد - مثلاً آخر - يقال : إنه يتمدد بالحرارة ، وينكمش بالبرودة .

وفي المعادلات الجبرية يقال : تكون نتيجة المعادلة سالبة إذا كانت حدودها السالبة أكثر من حدودها الموجبة ، والعكس صحيح ، وفي المنطق يقال: إذا سلمت المقدمتان (الصغرى والكبرى) سلمت النتيجة ، وهكذا.

فالحقائق العلمية واحدة لا تختلف عند جميع الأمم ، وفي كل اللغات ، ويتفاوت الأسلوب العلمي بتفاوت درجاته من كاتب إلى كاتب من حيث الوضوح والغموض وسوق البراهين ، وأياً كان فإن الأسلوب العلمي حقائق تخاطب العقل وغايته الإقناع ويتوقف على صحة العبارة عقليًا ولغوياً وواقعيًا ، وعلى صدق النتائج .

* * *

خصائص الأسلوب الأدبي

وعلى العكس مما مضى يأتي الأسلوب الأدبيّ ، وفيما يأتي قطعة نصية أخرى في الأهرام نفسها :

«ولما وقفت بنا الركاب في ساحة الأهرام ، وقفنا هناك موقف الجلال والإعظام : قبالة ذلك العَلَم الذي يطاول الروابي والأعلام ، والهضبة التي تعلو الهضاب والآكام . والبنية التي تشرف على رضوى والشام وتبلى ببقائها جدة الليالي والأيام ، وتطوي تحت ظلالها أقوامًا بعد أقوام ، وتفنى

بدوامها أعمار السنين والأعوام. خَلقَت ثياب الدهر وهي لا تزال في ثوبها القشيب (الجديد) وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب ، ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم ، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم».

تأمل هذه القطعة تطالعك خصائص الأسلوب الأدبيّ كالشمس في رائعة النهار ، فالفكرة التي تناولها الكاتب أحاسيس ومشاعر تدور حول :

قدم الهرم * احتفاظه برونقه على مر الدهور * عجائب الصنعة فيه .

وقد سلك في الإفصاح عن هذه المشاعر بصور نسجها الخيال ، فتنقل من صورة إلى صورة ، واستعمل من ألفاظ اللغة وتراكيبها ما ساعده على إبراز هذه المعاني، وقد عبّر عن بعض معانيه بصور متعددة فأسرى الروح في الجمادات ، وصيّرها كائنات حية تتصارع وتتنافر ولكن الأهرام بذها جميعًا: الروابي والأعلام (القمم والجبال الشامخة)، والهضاب والآكام، ورضوى والشام، وجدة الليالي والأيام، والأقوام بعد الأقوام (الأجيال) ؟!

وانظر إلى هذه الصور الجزئية التي أسهمت في تكوين المقال « يطاول الروابي والأعلام » ، «تبلى جدة الليالي والأيام» ، «خلقت ثياب الدهر»، «شابت القرون» ، «تناطح مواقع النجوم».

ثم لا يخفى عليك رنين الجمل وموسيقاها الحادثة من سجع فواصل الجمل : أهرام - إعظام - أعلام - آكام - شام - أيام - أقوام - أعوام - قشيب - مشيب - النجوم - الرجوم .

إن الكاتب هنا ليس معلمًا يحشد المعارف في الأذهان ، بل رسامة ماهر يحمل في يده ريشة مبدعة ، وبين يديه مجموعة من الألوان يصنع منها لوحة بديعة زاهية كما يصورها له خياله المبدع غير مقيد بأمور خارجة عن نفسه ، إنه يملك حرية لا حدود لها ، بينما صاحب الأسلوب العلمي مكبل بالقيود التي تفرضها عليه الحقائق التي يعرضها ، فالأسلوب الأدبيّ جماله في حرية كاتبه وحسن اختياراته . والأسلوب العلميّ جماله في

التزام صاحبه بحقائق العلوم والفنون التي يكشف عنها وهو لا يرى الحقيقة العلمية إلا كما يراها أمثاله ثابتة الملامح والقسمات وإن بدت في مظاهر عرضية مختلفة ، إنها مثل فلان من الناس لا تغير الثياب التي يرتديها من شخصه « الثابت » الذي عرف به بين الناس .

أما الرؤى الأدبية ، فمعارضة متصادمة ، فانظر - مثلاً - إلى ظهور الشيب حين يبدو عند تقدم السن كيف تختلف حوله مشاعر الأدباء فشاعر المعرة يقول فيه :

والشيب أزهار الشباب فما له يخفى وحسن الروض في الأزهار؟

ويراه الفرزدق :

تفاريق شيب في الشباب لوامح وما حسن ليل ليس فيه نجوم

ويراه الشريف الرضى:

غالطوني عن المشيب وقالوا : لا تُرَعْ إنه جلاء حسام

قلت: ما أمنُ مَن على الرأس منه صارم الحد في يد الأيام ؟

فكل من المعري والفرزدق يمدحان المشيب ، ولكن المعري يمدحه في حذر ويتساءل كيف يخفى الشباب عند انتشار الشيب مع أن الشباب روضه وجماله في وضاءة أزهاره ؟

وإذا كان المعري قد شبه الشباب بالروضة وشبه الشيب الأزهار فإن الصورة تختلف عند الفرزدق، إذ شبه الشباب بالليل ناظراً إلى سواد الشعر فيه ، ثم شبه الشيب بالنجوم تلمع في جنبات الليل، أما الرضى فشبه الشيب بالحسام اللامع المصقول، ثم انتهى إلى أن مَنْ على رأسه حسام مصقول -هكذا- فحريّ به أن يمتلكه الذعر ويطير النوم عن جفنيه إذ ما أدراه أن يحز هذا الحسام رأسه لأنه سلاح في يد الأيام لا سيطرة له هو عليه؟

وإذا تجاوزنا مرحلة المدح والتفاؤل والذم والتخوف فإن الشعراء الثلاثة كانت لكل منهم نظرة خاصة في تصوير الشباب ، فشاعر المعرة نظر إلى

نضارته وحيويته فشبهه بالروض الواعد بنضارة الحياة وجمالها.

والفرزدق نظر إلى طبيعة الشباب من الخارج(سواد الشعر) لذلك شبهه بالليل، وحمله هذا التشبيه على أن يشبه الشيب بالنجوم، فالصبغة اللونية غالبة على مشاعره .

أما الشريف فكان اهتمامه بالمشيب أكثر من الشباب في رسم الصورة الوجدانية ، التي أحس بها ، والصورة التي رسمها للمشيب «جلاء» منظور فيها - فيما اختار - إلى نضج التجارب التي تزخر بها حياة الإنسان حين تتقدم به السن.

ولعلك أدركت في وضوح كيف أمكن تصوير الظاهرة الواحدة - أدبيًا - في عدة معارض من حيث الشكل والمضمون معًا . وليس لذلك من سبب إلا ما يملكه الأديب من حرية لا يملكها صاحب الأسلوب العلمي للاعتبارات التي قدمنا. ونكتفي الآن بهذا القدر من التمثيل والتحليل، ونوجز ما قدمنا من فروق بين الأسلوبين العلمي والأدبي في الآتي:

الأسلوب العلمي : يخاطب العقل وموضوعه الحقائق الثوابت أو المحتملة. أما غايته : فهي الإقناع.

والأسلوب الأدبيّ : يخاطب العاطفة ، وموضوعه الأحاسيس التي يفيض بها وجدان الأديب ورؤاه الخاصة ، وغايته الإمتاع.

اللغة في الأسلوب العلمي: تعتمد على المعاني الوضعية وتحديد المعاني بكل دقة وتنأي عن الزخارف، إطارها الهدوء والموضوعية، **أما في الأسلوب الأدبي**: فتميل اللغة إلى التصوير الخياليّ بغية التأثير وتفخيم العبارة في إطار دافئ يثير العواطف ويثري الوجدان ويبعث في النفوس النشاط والحركة .

الأسلوب العلمي : يدور في إطار محدد ، لا يملك الخروج عنه ، أما **الأسلوب الأدبيّ** : فله حرية واسعة يتنقل بين فنونها وأفنانها ، ولذلك

تختلف الرؤى الأدبية من أديب إلى أديب بينما تكون الحقائق العلمية واحدة وإن اختلفت الطرق المؤدية إليها ، والمناهج الكاشفة عنها .

يعتمد الأسلوب العلمي على التبويب والتقسيم والتنظيم والأرقام أحياناً، بينما **يرتكز الأسلوب الأدبيّ** على التصوير والخيال وتوليد الألفاظ معاني خاصة مع التأنق في العبارة وسعة التصرف في التراكيب .

ما ينفرد به الأسلوب العلمي:

وللأسلوب العلمي - أحيانًا - ميزة لم تعرف للأسلوب الأدبي ، فبعض موضوعات الأسلوب العلمي تقبل العرض في إطار مشابه لإطار الأسلوب الأدبيّ ، وقد نتج من هذا التصرف وجود نوع ثالث وسط بين الأسلوبين العلمي والأدبي هو :

الأسلوب العلمي المتأدب : وضابطه : أن تكون الفكرة أو الأفكار أو الموضوع حقائق علمية ، أما الصورة التي تخرج فيها (الألفاظ والتراكيب) فتكون شبيهة بما في الأسلوب الأدبيّ من دفء العبارة وجنوحها للتصوير وخلابة اللفظ . ومن أمثلة هذا الأسلوب كتب الشيخ محمد الغزاليّ ، وكتاب الدكتور طه حسين : «حديث الأربعاء» ، وكتاب « في ظلال القرآن» ، للشهيد : سيد قطب ، وغيرها كثير .

والآن نحدد في وضوح أن الذي يهمنا من نوعي الأسلوب هو كلاهما مع العناية الخاصة بالأسلوب الأدبيّ ، ولنسر مع خطوات المنهج الدراسيّ الذي بين أيدينا ، والذي استهل موضوعاته بالتفرقة بين علم اللغة العام وعلم الأسلوب :

• • •